



اسألوا أهل الذكر

د. عبد الرحمن البر يكتب: ابتلاء ونصر.. لا مبدل لكلمات الله



السبت 18 فبراير 2017 م

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والده.

وبعد: فمن العجيب أن نقرأ آيات القرآن، ونمر على ما حواه من قوانين الله وسننه النافذة في الكون مروء الكرام، مع أنه «لا مبدل لكلمات الله» في وعده ووعيده التي منها وعده للرسل وللمؤمنين بالنصر، وتوعده لاعدائهم بالهزيمة والخذلان.

ومن ذلك أن تجدة البعض تنتلي عليهم آيات الابتلاء وهم في غفلة عنها، وعند انتطبقها على الواقع، حتى تستغرقهم شدة الابتلاء وظهور الباطل كالمنتصر أحياناً، فيقولون: لو كان هذا حقاً لنصره الله! فما أحقرتهم بكتاب الله! وما أبعدهم عن العلم بسنتن الله الناطقة بأن الابتلاء عنوان صحة الطريق، وإذا تمت مواجهته بالصبر وحسن التصرف انقلب عزاً ونصرًا مبيناً.

فلنعيش مع بعض آيات القرآن التي تطمئن أهل الحق أن شدائهم إلى زوال، وأن الابتلاء الحاصلاليوم مفجّع لا محالة إلى نصر عزيز، قريباً بإذن الله.

(1) المذاولة سنة الله فلا تبتئس من شدة الابتلاء

مهما تمكّن الطالمون من أسباب القوّة فإن الاستمرار في الحراك الثوري المبدع المتوجه، ورفض باطّلهم، والإصرار على عدم شرعاًّ لهم، والصبر الجميل على إيدائهم، سيتحقق غايته بازهاق الانقلاب الدموي الظالم ياذن الله «ولَا تهنوا ولَا تحزنوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ. إِنْ يَمْسِسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مُثْلُهُ وَتَلْكَ الْأَيَّامُ تَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ».

فمن كان أقرب كان أجدر بالنصر، وسنة الله في الدعوات واحدة: فئة تلقّاها بالتكذيب، وتلقي أصحابها بالأذى، وصبر وجهاد متّوّع مناسب من أهل الحق، ثم نصر في النهاية، في الموعد الذي سبق تعريره في علم الله، مهما دلت ظواهر الأمور على خلافه « حتّى إذا استيّض الرّسل وظنّوا أنّهـم قد كذبوا جاءـهم نصرـنا فـنجـيـ من نـشـاءـ وـلـ يـرـدـ بـأـسـنـاـ عـنـ القـوـمـ الـمـجـرـمـيـنـ»، فإذا استيّاص أهل الإيمان، وظنّ الغافلون أنّ ما وعدـهـ اللهـ من نـصـرـهـ وـهـمـ خـادـعـ؛ جاءـ النـصرـ حـيـنـذاـ، مـهـماـ قـلـ العـدـدـ وـضـعـفـتـ الـعـدـةـ، فـكـمـ مـنـ فـيـةـ قـلـيلـ غـلـيـتـ فـتـةـ كـثـيرـ يـاذـنـ اللهـ وـالـهـ مـعـ الصـابـرـيـنـ، وـالـعـدـدـ الـقـلـيلـ مـنـ أـهـلـ الـعـرـائـمـ يـفـعـلـ بـعـونـ اللهـ مـاـ لـ يـفـعـلـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـهـزـ وـمـنـ الـمـأـزـ وـمـنـ الـمـأـزـمـيـنـ.

وهو نصر عزيزٌ ممتدٌ للأجيال تالية، بقدر التضحيات النفيسيّة التي قدّمت لتحقيقه.

(2) الابتلاء يُظهر المعدين النّفيس

«وَتَبَلُّوكُمْ بِالشّّـ وَالـخـيـرـ فـتـةـ وـإـلـيـنـاـ تـرـجـعـونـ»، فـيـ آتـيـنـ الـفـتـنةـ وـنـارـ الـابـتـلـاءـ تـحـرـقـ الـمـعـادـنـ الـأـصـيلـةـ صـلـابةـ وـقـفـاسـةـ وـلـمـعـانـاـ، وـيـمـيزـ اللهـ الـخـيـثـ الـمـتـسـاقـطـ مـنـ الطـيـبـ الـذـيـ سـيـحـمـلـ رسـالـةـ الـحـقـ وـالـخـيـرـ وـالـعـدـلـ بـحـقـهـاـ، وـهـذـاـ أـحـدـ أـهـمـ مـكـاسـبـ الـأـمـةـ مـنـ سـنـةـ الـابـتـلـاءـ» أـمـ حـسـبـتـمـ أـنـ تـرـكـوـواـ وـلـمـ يـعـلـمـ اللهـ الـذـيـنـ جـاهـدـوـ مـنـكـمـ وـلـمـ يـنـجـحـوـ مـنـ دـوـنـ اللهـ وـلـ رـسـولـهـ وـلـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـلـيـجـةـ وـالـهـ خـيـرـ بـمـاـ تـعـمـلـوـنـ».

فـمعـ شـدـةـ الـابـتـلـاءـ تـهـنـكـ الأـسـتاـرـ، وـتـكـسـفـ الـخـيـانـاتـ، فـيـمـاـرـ الـنـاسـ كـلـ الـفـرـيقـيـنـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ، وـإـنـ كـانـ اللهـ يـعـلـمـهـ

من قبل. ولئن كنا نالم من شدة البتلء والمحنة فإنَّ المُنَا لَأَسْدِ بما كشفت من زيف، وبما أدرقت من رموز وقامات طالما اندفع الناس بها، ولكنه الخير المطوي في قلب المحنة: ليكون البناء من بعد خاليًا من الغش.

رَبِّ أَمْرٍ تَقْيِهِ جَرَّ أَمْرًا تَرْجِيهِ
خَفِيَ الْمَكْرُوهُ مِنْهُ وَبِدَا الْمَحْبُوبُ فِيهِ

وكم سقط في المحنة من شخصيات! لو أنَّ أحدًا كان أشار إلى خللها أو عللها لُرِعَت لها أنوف صارت اليوم تبرأ منها!. وكم كشفت المحنة عن معادن نفيسة كانت بصدقها مغفورةً مطمورةً بعيدةً عن أضواء الإعلان! فأصبحت بليلتها ملء القلوب قبل الأسماع والأ بصار، إذ عصمتها اللطيف من الفتنة يأكلها **نَّمِ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا تُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**. ومضت إرادة الله أن تمز علىهم الفتنة الشديدة فيسلموا من آثارها، وفي الحديث: **إِنَّ اللَّهَ هَذَا مِنْ حَلْفِهِ يُحِبِّيهِمْ فِي عَافِيَةٍ، وَإِذَا تَوَفَّاهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ تَمَّ عَلَيْهِمُ الْفَتْنَةُ قَطَعَ اللَّيْلَ الْمُظْلِمَ، وَهُمْ فِيهَا فِي عَافِيَةٍ**. فالشدة بحق خاضفة رافعة.

(3) الدعوة تعلو وتعلو وتعز على أهلها بقدر بذلهم وتضحياتهم لا شك عند أولي النهي أن الطالمين في قبضة الله «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لِلنَّصْرِ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَنْلُوَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا»، فهوذا مضت سنة الله: لأنَّ النصر السهل بلا تكلفة لا يصنع حملة رسالة، أمَّا النصر الذي بذلت فيه الأرواح والنفائس فإنَّ أصحابه يكونون أشد حفظا له وحرضا عليه.

إن الصبر على البتلءات والمقاومة للشدائدي للباطل هي التي تستثير القوى الكامنة وتنميها وتجمّعها وتوجهها، فتتأصل جذور الدعوة وتعمق وتصل بالغطرسة السليمة، فتصنع الرواحل التي تحمل الأمة الدعوة، وفي الصحيح: **إِنَّمَا النَّاسُ كَالْبَلَلِ الْمَائِلَةُ لَنَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**.

مايسِر أن يتحدى البلوغ عن الصبر على الشدائدي، وما أسهل أن يتوقف المתחمّس الصمود للفتنة، غير أن ميدان القول والتوجُّه غير ميدان الواقع والجهاد **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْهُمْ وَيَعْلَمُ الظَّابِرِينَ**. وآخذ كُلُّمَنْ قبل أن تلقوه فقد زانموه وأنتم تتذرون.

إنه ليس بمجرد التمثيل وإعلان الاستعداد بحفل النصر، بل لا بد من الصبر على التكاليف المستمرة المتتوالية التي لا تنتهي، من الاستقامة والجهاد، والصبر على الضعف الإنساني في النفس وفي الغير، والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل ويتفشّي، ويدوّي كالمنتصر، والصبر على طول الطريق، وبعد الشقة وكثرة العقبات، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زرمة الجهاد، في الطريق المحفوف بالمخاطر! وبهذا الصبر الإيجابي الرائع ينفتح الطريق إلى النصر المأمول، ولن يقدّر على ذلك إلا الرواحل الذين يتبعوا للشدة وعصموا من الفتنة.

(4) تجاوز البتلء يكون بالصبر والتفاني واليقين بلقاء الله إنها سنة الله في الدعوات: لا بد من ابتلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس **لَتَبْلُوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّسِمُونَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذِى كَبِيرًا**. **وَإِنْ تَصْبِرُوْا** على البتلء **وَتَقْرُوْا** ما يجب تقاومه في الاستعداد لذلِك قبل نزوله، ومكافحته عند وقوعه **فَإِنَّ ذَلِكَ الْصَّبَرُ وَالْتَّقْوَى** **مِنْ عَزِيزِ الْمُؤْرُورِ**، أي التي يجب أن تُعْقد عليها العزمية، وتحصّن فيها العزمية، وجوانا محظىًّا لا ضعف فيه، ولا انكسار معه، فإنْ كنتم ممن توهّنُهم الشدة ويكسرُهم الآذى **فَلَسْتُمْ أَحْرَيَهُمْ بِنَصْرِ الْحَقِّ**.

ولن ينصره إلا من كان أصلبَّ عوًدًا، فهو لهم الرواحل الذين يصلّون لحمل الدعوة، ويؤمنون على القيام بها، **وَلَتَبْلُوْنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالظَّابِرِينَ وَتَبْلُوْنَ أَخْبَارَكُمْ**، وهو لهم **الَّذِينَ يَطْلُنُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوْنَ بَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ**، والظن هناً يقين، فإذا عاينوا ضخامة القيمة ضدهم **فَقَالَ الَّذِينَ يَطْلُنُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُو اللَّهِ كُمْ مِنْ فَتَنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَنَةَ كَبِيرَةٍ يَادُنَ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الظَّابِرِينَ** فینطليقوں مُتحمّلين مرارة الصبر على الآذى، مُصرّين على الثبات على الحق، فلا توهّنُهم المصائب والشائد، بل تزيدُهم قوة.

(5) النصر بعد النجاح في اختبار البأساء والضراء فلا تفكين إلا بعد ابتلاء، ولا نصر إلا بعد تمحيص **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَأْتُكُمْ مَثَلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَاسِاءُ وَالضَّرَاءُ وَرَأَلُوا حَتَّى يُقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**، وليس قولُ الرَّسُولِ **مَتَى نَصْرُ اللَّهِ** سُكَّا: بل هو طلب واستنجاز للنصر مثل قوله حَتَّى يُقُولَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدِيرٍ: **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي**.

وما يجري لا يعود أن يكون اختيارة، لا حالة دائمة، ولا يلبي أن ينتهي، بعد أن ينجح الصادقون بفضل الله **وَلَتَبْلُوْنَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَعْصِيَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالنُّفُراتِ**، فقوله **بِشَيْءٍ** يُؤْذِنُ أنَّ كُلَّ بللي أصابات الإنسان وإن جل، فهو طرفٌ قليل، وإذا كان البعض يهتزُ أمامه فإنَّ الله بلطفيه يخفّفه على المؤمنين، و يجعل رحمته معهم في كل حال؛ لأنهم **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُحِبَّةٌ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ وَإِنَّ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**.

ولهذا استحقوا البشري والنصر **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ** أي ثانية من الله تعالى عليهم و مدح و تكريمة لهم **وَرَحْمَةٌ** أي كشف للكربة، وقضاء لل حاجة **وَأَوْتَيْكُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** الذين أصابوا طريق الحق، دون من خالفهم **فَاتَّاهُمُ اللَّهُ تَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنَ تَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**.

ومهما حاولَ الظالمونَ الإضرار بهم فلن يضرُّوْهُمْ إِلَّا أَذِي، يستقبلونه بثباتٍ ورضاً، ويستعينون بالله على تجاوزه، ويستغيثونه فينزلُ عليهم نصره من فورهم **بِتَلِي إِنْ تَصْبِرُوا وَتَقْرُوْا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ قَوْرَهُمْ هَذَا يُمْدِدُكُمْ بِرُكْمٍ بِخَمْسَةِ الْأَدْفِيَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسْوِمِينَ**.

أيها النوار الأحرار، في ضوء هذه المعانى القرائية نمضي في ثورتنا السُّلْمَانِيَّةِ العظيمة، مؤمنين بصحّة طريقنا، مطمئنين لوعد ربنا، نجمع صفوفنا، ونوحد كلمتنا، ونجدّد صبرنا، ونبذل في أدائنا، وننتظر ساعة النصر، وما هي مّا بعيد.

